جماليات التداخل في التجربة السردية عند أحلام مستغانمي

الدكتورة: آمـــال منصـــور
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر– بسكرة

تقديم:

حينما تتسع الهوة بين الذات والعالم، تولد الكتابة وتصبح فعل خلاص، ترسم بين سطورها حلما جديدا يخبئ في داخله جرحا عميقا، جرح يسائل الزمن والمجتمع والعرف، فإذا كانت جميع الأجناس الأدبية نابعة من هذا المنطلق، فإن الرواية هي أكثر الأجناس تعبيرا عن هذه النظرة.

تتأسس الرواية باعتبارها عالما فريدا من حيث شخوصه وفضاءاته، لتقارب العالم وتمثلاته، وهي في الحقيقة ترصد عالمين:

- عالم واقعي: هو عالم يحاكي الحياة الواقعية بكل تفاصيلها.
- عالم آخر تخييلي: هو عالم مثالي– غالبا– تتمثله ثم ترسمه وفقا لطموحاتها وأحلامها.

لكن بين العالمين فجوة هائلة يستحيل ردمها، ومادامت الرواية تطمح أن تقدم العالم مكتملا، كان لزاما عليها أن تستوعب أجناسا أخرى مثل: فن السيرة، فن الشعر، فن الرسائل وحتى الموسيقى والرسم... فكلما عمقت هذا الانفتاح، كلما كانت قادرة على مقاربة العالم الذي تريد رسمه.

ولعلّ تجربة" أحلام مستغانمي" خلال مسيرتها السردية تجسّد هذا التداخل بين الأجناس، حيث يتقاطع الشعر والسرد والموسيقى في آن واحد ويصبحان كلا واحدا يعبر عن رؤية فريدة للعالم والتاريخ والإنسان.

تحاول مداخلتنا الموسومة بـــ" جماليات التداخل في التجربة السردية عند أحلام مستغانمي" معالجة هذا الانفتاح، وتبيّن كيف نجحت" أحلام مستغانمي" في صناعة جنس روائي مختلف يستقطب القارئ العربيّ ويسحره... بل و يحدث هزّة في الذّوق السّائد.

1- **ملخص متن الدراسة:**

ترسم" أحلام مستغانمي" من خلال النص الروائي عالما جديدا، عالم تتقاسمه الذكريات الدّامية والأحلام التي لم تتحقق، لكن قسمه الأعظم للهزائم والجروح التي لم تشف بعد، ففي ثلاثيتها(ذاكرة الجسد/ فوضى الحواس/ عابر سرير) تعيد كتابة تاريخ الوجع الجزائري منذ الثورة حتى العشرية السوداء، حيث يكون الحب البطل المزيف للأحداث، بينما يعلو حس مرارة الخيانة،(فخالد بن طوبال) الذي فقد ذراعه إكراما للوطن، تضطره الخيانة إلى الحياة في ضفّة العدو، ويصبح رساما مشهورا في باريس، وهناك يجد نفسه على موعد مع الألم مرة أخرى، و يلتقي(بأحلام) لتنبش في جروحه من جديد، ويقع في عشقها، لكنه يخسر المعركة، ويحضر عرس(أحلام) بواحد ممّن باعوا الوطن بأبخس الأثمان.

أمّا في" الأسود يليق بك" فتحكي قصة عشقية أخرى فاشلة بطلتها الفنانة" هالة الوافي" ذات السابع والعشرين سنة التي تترك الذاكرة الجريحة آثارها في روحها الرقيقة وترتدي الأسود حدادا على أبيها وأخيها، يوقعها رجل أعمال لبناني خمسيني في شباك حبّه بعد مراوغة طويلة، يفتنها بوروده أينما ذهبت، وببطاقاته المثيرة المؤثرة، لكنها تكتشف حقيقة نواياه بعد رحلات عديدة معه، فهو لن يتخلّى عن زوجته وبناته.. ولن يتخذها زوجة أمام الدين والقانون.

تصور الرواية حالة عشقية غريبة تتنازل فيها" هالة" عن القيم التي طالما آمنت بها، وتلعب دور العشيقة الولهانة لمدة سنتين، حتى تقرر التخلّي عن لون الحداد والخروج من ربقة عبودية" طلال".

تحافظ" أحلام مستغانمي" على وجودها أدبيا من خلال لغتها الراقية التي تأسر القارئ، فهي تكتب بلغة شعرية متفردة تسيطر بها على متلقيها، ففي" نسيان كوم" لا تقدم للقارئ" رواية" أو" قصة قصيرة" واضحة المعالم، إلا أنها تنجح في كسب متلقيها، وخاصة فئة النسوة اللاتي مررن بتجارب عاطفية فاشلة« إلى النساء اللواتي عقدن قرانهن على الانتظار »[1]

ففي هذا الكتاب تقدم نصائح ووصايا للعاشقات المخدوعات، وتضع في غلاف الكتاب تحذيرا" يحظر بيعه للرجال"، لكنها توجه خطابا للرجال المتسللين لقراءته:« هذا

الكتاب يسمح لمن تسلّل من الرجال هنا، أن يتعلم من أخطاء غيره من(الذكور) من باب تعلم الأدب من قليل الأدب»[2]

2- نحو فهم جديد لنظرية الأجناس الأدبيّة:

ظلت نظرية الأجناس الأدبية زمنا أهم نظرية في العرف النقدي، فقد حدّد أرسطو الحدود الفاصلة بين الأجناس وخصائصها.

فكلمة" جنس" هي ترجمة لمصطلح" genre" وتترجم إلى العربيّة بـــ" لون" و" نوع" ويرى" عبد الواحد لؤلؤة" أن كلمة جنس في الآداب الأوروبية تحافظ على شكلها الفرنسي genre المشتقة من الكلمة اللاتينية genus.

لقد أصبحت نظرية الجنس الأدبي« من المبادئ الرئيسة للمذهب الكلاسيكي الذي كان إنتاجه أوضح وأكبر ما يكون في فنون المسرح الشعري»[3]

وتأسّس بموجب النظرة الأرسطية، أن اختراق الجنس الأدبي الواحد يعد خرقا للأعراف الأدبية السائدة.

لكن مع الحركة الرومانسية تغيّر كل شيء، فلم يعد الالتزام بما يسنّه الآخرون مجديا، فكل خروج عن السائد يعد سبقا...، لذلك دعا الرومانسيون بتداخل الأجناس.

تثير هذه النظرة أطروحات وأسئلة عدة: هل يبرر هذا الخرق الإبداعي مفهوم الإبداع نفسه باعتباره حرية غير مشروطة؟ أم أن التجاوز الإبداعي للأعراف الأدبية هو كشف عن مضامين أخرى فلسفية ومعرفية تتعلق بنزعة الحداثة وما بعدها؟

3- آليات اشتغال التداخل في التجربة السردية عند" أحلام مستغانمي":

لم تكن أحلام بداية المغامرة في كسر المواضعات الأدبية والروائية تحديدا، بل سبقتها محاولات وتجارب عديدة عربيا، كان لها الفضل في تشكيل ذوق جديد، ولعلّ نجاح التجربة السردية لأحلام عربيا، يعود إلى لغتها الشعرية الراقية.

3-1- شعرنة السرد في الثلاثية:

في الثلاثية تبدأ أحلام في كتابة الجرح الجزائري بلغة تجعل الجرح أعمق، فالحفر في تفاصيل الذاكرة ليس بالأمر الهيّن.

تستعين أحلام في الثلاثية بآلية التوازي parallisme لتخترق السرد، فاللغة الشعرية لا تتحقق إلا من خلال التوازي وهو:« تكرار غير كامل لأجزاء بنائية في الشعر،

ويشمل مستويات متعددة كالبنى التركيبية والصيغ والمقولات النحوية، وتكون العلاقة بين الجزأين المكررين علاقة مشابهة أو مطابقة»[4]

يتحقق التوازي في قولها في" ذاكرة الجسد":« لم تكوني امرأة من ورق.. تحب وتكره على ورق.. وتهجر وتعود على ورق.. وتقتل وتحيي بجرّة قلم»[5]

يتحقق التوازي من خلال التكرار/ التشابه/ التتابع، حيث يحدث نغما موسيقيا تطرب له الأذن، كما أنه يعمق الدلالة ويجعلها أقرب إلى الخيال.

تقول أيضا:« بين أول رصاصة وآخر رصاصة، تغيّرت الصدور، تغيّرت الأهداف.. وتغيّر الوطن»[6]

فأحلام عن طريق اللغة الشعرية تلبس الحقيقة القاسية ثوبا تخييليا، يجعلها أقرب إلى الوهم.

في الحقيقة ليس التوازي هو الذي يكفل لأحلام هذه اللغة التي تسيطر على المتلقي وتجعله أسيرا لها، وإنما هناك آليات أخرى تكفل لها ذلك.

فهي عن طريق" توظيف الصورة الشعرية" وبناء المجاز عموما تتمكن من العبور إلى الشعر، تقول:« هنالك مدن كالنساء، تهزمك أسماؤها مسبقا، تغريك وتربكك، تملأك وتفرغك، وتجرّدك ذاكرتها من كل مشاريعك ليصبح الحب كل برنامجك»[7]

فالروائية هنا تنجح في تحويل الأشياء المجردة إلى أشياء محسوسة، فتنسب إليها ما يمكن أن تقوم به، ... بل تتوصل في النهاية إلى إقناع قارئها بذلك.

كما تستعين أحلام بآلية أخرى لتحقق التجاوز وهي" تضمين النص السردي أبياتا شعرية" مثلا في قولها:

أمسيات... أمسيات

كم من مساء لصباح واحد

Soir, soir, que de soir pour un seul matin[8]

وهي في الحقيقة لا تستعين بالشعر الفصيح فقط، بل حتى بالأغنية الشعبية– مثلا– في:« يا التفاحة.. يا التفاحة، خبريني وعلاش الناس والعت بيك»[9]

وهي في كل حالات عبورها من السرد إلى أشكال أخرى، لا تجعل قارئها يحس بأي تكلف أو تصنع، بل تمنحه تأشيرة دون مقابل للعبور إلى ضفاف أخرى لا يدركها ولا يعرفها.

3-2- جماليات الانفتاح على الموسيقى في" الأسود يليق بك":

لاشك أن الموسيقى مبحث مهم من المباحث الفنية، وقبل أن تكون كذلك هي« فطرة من بين الفطر الإنسانية المتعددة(..) من ثمة كان الحديث عن ارتباط الموسيقى بالفلك وبالطب لعلاج الجسم والروح، والحث على العمل أو الكف عنه، وفي ميراث فيثاغوراس، وأفلاطون، وأرسطو كسينوس، وكانتيليانوس، ما يشفي الغليل حول هذا المبدأ»[10].

لقد انتقل الاحساس بأهمية الموسيقى في الحياة، ثم الكتابة عنها في الثقافة العربية الإسلامية منذ مجيء زرياب إلى الأندلس، ومن أهم المنظرين لها" ابن باجه"، وكانت هناك مواقف حولها، منها مواقف محبذة وأخرى رافضة، لكن ما يجب التنبيه إليه هو أن الأصول الاغريقية لم تصل إلى الأندلس، بل أن ما اطلع عليه المهتمون من الأندلسيين هو آثار الفلاسفة من المسلمين مثل: الكندي، الفارابي، ابن سينا، إخوان الصفا...

لكن عبور الموسيقى للجنس السردي لم يكن مطروقا في الأدب العربي، فأحلام حاولت في عملها الموسوم بـــ" الأسود يليق بك"، أن تمازج بين السرد والموسيقى بدءا من " تسمية فصول الرواية" باسم الحركات الأولى.. الثانية.. الثالثة... وبطلة الرواية" هالة" فنانة مولعة بالموسيقى ومدرّسة لها، وفي الحقيقة إن الموسيقى حاضرة في كل ثنايا الرواية، فعندما تفتتح بداية القص تقول:« كبيانو أنيق مغلق على موسيقاه، منغلق هو على سره»[11]

فهي تحاول أن تشعر قارئها بوجود الحس الموسيقي، كما تبحث جاهدة عن أقوال فلسفية أو أمثال مأثورة تبرز أهمية الموسيقى وعلاقتها بالحب والعشق مثل استشهادها بمقولة نيتشة:« الموسيقى ألغت احتمال أن تكون الحياة غلطة»[12]

تبرر أحلام وجود الموسيقى في عالمها القصصي بقولها:« ما من قصة حب إلاّ وتبدأ بحركة موسيقية، قائد الأوركسترا فيها ليس قلبك، إنّما القدر الذي يخفي عنك عصاه. بها يقودك نحو سلم موسيقي لا درج له، ما دمت لا تمتلك من سمفونية العمر لا" مفتاح صول" .. ولا القفلة الموسيقية»[13]

4- **خلاصة الدراسة:**

في الحقيقة تنجح أحلام في كثير من الأحيان أن تأخذك معها إلى عوالمها المتناقضة مثل الحياة تماما، العوالم التي يختلط فيها الحزن بالفرح، والقنوط بالأمل، والصدق بالخيانة... إنها تأخذك إلى هذه العوالم دون أن تستشيرك، فتزور معها باريس وبيروت والقاهرة والجزائر بكل مدنها العميقة.. وتمنحك من تجاربها كثيرا من النصائح... لعلك تفلح في عدم تكرارها.

لكنها في هذه الرحلة الطويلة مع قارئها تمارس اللعبة السردية بكل تفاصيلها.. فأحيانا توفق في العبور إلى أجناس أخرى كالشعر والفلسفة.. وأحيانا تتصنع العبور مثل عبورها إلى الموسيقى فتبدو المحاولة متكلفة وتخسر الرهان.

هوامش الدراسة:

1- أحلام مستغانمي، نسيان كوم، دار الآداب، بيروت، ط1، 2009، ص: 07.

2- المصدر نفسه، ص: 13.

3- حورية الخميشلي، الكتابة والأجناس" شعرية الانفتاح في الشعر العربي الحديث"، دار الأمان، المغرب، ط1، 2014، ص: 36.

4- آمال منصور، أدونيس وبنية القصيدة القصيرة، دار عالم الكتب، الأردن، 2007، ص: 171.

5- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، موفم للنشر، الجزائر، 1993، ص: 20.

6- المصدر نفسه، ص: 29.

7- المصدر نفسه، ص: 247.

8- المصدر نفسه، ص: 26، 27.

9- المصدر نفسه، ص: 16.

10- محمد مفتاح، رؤيا التماثل(مقالة في البنيات العميقة)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2005، ص: 190.

11- أحلام مستغانمي، الأسود يليق بك، نوفل، بيروت، 2012، ص: 11.

12- المصدر نفسه، ص: 318.

13- المصدر نفسه، ص: واجهة الكتاب.